ملاحظات على الأحكام النقدية
فى كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى

للدكتور
أحمد عبد الغفار عبيد

عاش أبو هـلال الحسن بن عبد الله بن سـهل العسكري [1] (٣١٠ - ٣٩٥ هـ) في القرن الرابع الهجرى ، وتميزت الحقبة التي ظهر فيهـا نشاطه العلمي بنمو الدراسات الأدبية والنقدية ، إذ من المعلوم أن بواكير النهضة العلمية فى دولة الخلافة الإسلامية ظهرت فى القرن الثانى الهجرى ، وقويت فى القرن الثالث وعلى امتداد القرن الرابع ، وكتابات أبى هلال تتسم بصفة عامة بالتسجيل والتعقيب فهو كثيرا ما يوازن ويراجع ، ويعقب ويشرح أقوال سابقيه من العلماء والشيوخ، وليس معنى ذلك أنه لم تكن لأبى هلال إضافات واجتهـادات فقد كان الرجل ذا ذوق مرهف وبصر نافذ ودراية واسعة بأصول الأدب العربى ، وإلمام مهم بقضاياه ، فلم تغب عنه كتابات الأعلام الأول فى البحث النقدى من أمثال : الجاحظ وابن قتيبـة وابن المعتز والآمدى وأبى الحسن الجرجانى وقدامة بن جعفر وغيرهم ممن سبقوه وذاعت كتاباتهم وآراؤهم . ومن ثم أتيحت لأبى هلال فرصة الاطلاع عل ذلك النتاج المتنوع في نقد الشعر والنثر ، فأتت أحكامه النقـدية على جانب كبير من الأهمية ، وبخاصة إذا وضعنا في الحسبان أنه كان معنيا فى كتابه « الصناعتين » بالتعقيب على آراء من سبقوه وتحرير القضايا المضطربة فى فهمهم لحقائق الأدب وأصوله .

والحق أن لأبى هلال لفتات نقدية مهمة تكشف عن ذوق مرهف وحسن أدبى مثقف ، وإدراك واع لحقائق الفن وأصوله ، ويتميز أسلوبه

---

١) العسكرى : نسبة إلى « عسكر مكرم » وهى مدينة من مدن الأهواز بين البصرة وبلاد فارس اختطها « مكرم الباهلي » فنسبت إليه . (وفيات الأعيان) .

فى الصناعتين بالإكثار من عرض الشواهد الموضحة لأحكامه النقدية، وعقد الموازنات التى تميز الجيد من الردىء ، كما كان دقيقا فى كثير من أحكامه حتى بلغ من ذلك أنه يمايز بين درجات الجودة ودرجات الرداءة ويضع لكل مستوى من تلك المستويات المصطلح الملائم لدقة ملاحظته وعمق تحليله .

وثمة ظاهرة فى نقدات أبى هلال فى الصناعتين وهى أنه كان كثيرا مايسوق آراء سابقيه ونقداتهم ويذكرها فى مقام التدليل على مايقرره من حقائق الأدب وأصوله ، وكثيرا ما كان ينقل عبارات سابقيه بنصها . ولعله استباح لنفسه ذلك انطلاقا من اقتناعه بصواب تلك الأحكام ، وأنه كان مشغولا فى كتابه بوضع الأسس العامة والأصول الكلية ، ولم تكن النظرات النقدية الجزئية هى هدفه الأول أو مقصده الأساسى فى كتاب الصناعتين .

إذا كان أبو هلال فى معرض وضعه للأصول النقدية والمعايير البلاغية يستعين بآراء سابقيه ، وكانت له إلى جانب ذلك اجتهادات خاصة وآراء لم يسبقه إلى تقريرها أحد ، وهذا ما سأسلط عليه الأضواء فى هذه الدراسة الموجزة .

اشتمل كتاب « الصناعتين » على عشرة أبواب . غلب البحث فى النقد الأدبى على ثلاث منها هى :

١ ـ تمييز الكلام جيده من رديئه ومحموده من مذمومه . وهو فصلان .

٢ ـ معرفة صنعة الكلام . وهو فصلان .

٣ ـ البيان عن حسن السبك وجودة الوصف . وهو فصل واحد .

ويتضح من قراءة افتتاحية الكتاب أن أبا هلال كان مدركا لأهمية

الموضوع الذى سيدير البحث حوله، وكان واضحا فى وعيه بادىء ذى بدء أن هـذا الموضوع تباينت حوله وجهات النظر واختلط فى أذهان الناس ، وأن بعض من سبقوه جانبهم الصواب فى تمييز الجيد من الردىء ، وشابت بعض أحكامهم وتقريراتهم عدم الدقة والبعد عن الصـواب فبعد أن يشير أبو هلال فى افتتاحية كتابه إلى أهمية معرفة علم البلاغة وارتباط ذلك بمعرفة إعجاز القرآن الكريم يشير إلى أن التفريط فى إدراك حقائق هذا العلم يعمى على سائر الفضائل ثم يقول :

« لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن ، وآخر قبيح ، وشعر نادر ، وآخر بارد بان جهله ، وظهر نقصه ، وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة ، وقد فاته هذا العلم ـ مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى العكر ، فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل[1] «... وإذا أراد أيضا تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم ، وتخطى هذا العلم ، ساء اختياره له وقبحت آثاره فيه ، فأخذ الردىء المرذول ، وترك الجيد المقبول، فدل على قصوره فهمه ، وتأخر معرفته وعلمه » .

ويضرب أبو هلال على الأصول التى تقررها الأمثلة ولا يمنعه من إبراز وجهة نظره شهرة من ينقدهم ، وذيوع صوتهم فى ميدان البصر بالأدب القديم وروايته فينتقد الاصمعى ويذكر أنه كان يؤثر الغريب الذى يقل تداول الرواة له ومثل لذلك باختياره قصيدة المرقش :

---

١) الصناعتين ص ١ .

هل بالديار أن تجيب صمم لو أن حيا ناطقا كلم

يقول أبو هلال بعد أن يذكر أن اختيار الرجل قطعة من عقله : «ولا أعرف على أى وجه صرف (الأصمعى) اختياره إليها وماهى بمستقيمة الوزن ولا مونقة الروى ولا سلسة اللفظ ، ولا جيدة السبك ولا متلائمة النسج » وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيه ، وهذا خطأ من الاختيار لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده وفيه دلالة الاستكراه والتكلف »[1] .

ويستطرد أبو هلال فى بيان أخطاء سابقيه ومجانبتهم للصواب فى بعض أحكامهم النقدية ، وينتهى من ذلك كله إلى قوله : « فلما رأيت تخليط هؤلاء الاعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة . والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة . . . إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مثبوتة فى تضاعيفه . ومنتشرة فى أثنائه فهى ضالة بين الأمثلة . لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه »[2] .

---

١) الصناعتين ص ١١ .

٢) الصناعتين ص ١٣ .

ويعنينا فى هذا المقام أن نتأمل تعليقاته النقدية ونرى مبلغ ما فيها من جدة وأصالة ، وما أضافته إلى الفكر النقدى عند العرب .

المقاييس النقدية في كتاب الصناعتين :

يستطيع المتتبع لآراء أبى هلال فى النقد الأدبي في الصناعتين أن يلحظ توزعها على جوانب ثلاثة تتعلق بالنص الأدبى منها ما يتصل بالمحتوى ، ومنها ما يرتبط بالشكل . ومنها ما يعلق بهما معا من حيث انسجام الشكل مع المضمون ، والتئام الصورة مع المحتوى .

وأستطيع أن أوجز القول فى أهم هذه المقاييس فى النقاط التالية :

١ — صحة المعنى :

وهو مقياس عريق من مقاييس النقد الأدبى عند العرب بل لعله من أقدم ما عرفه النقاد القدامى فى عصر ما قبل الإسلام ، وهو أمر جوهرى لضمان الإعجاب بما يقوله الأديب شعراً أو نثرا لأن الأدب المؤثر تعبير جميل عن معنى دقيق ولابد من توفر صحة المعنى على أساس أنه أحد الجوانب التي تستحوذ على إعجاب متلقي النتاج الأدبى وتبعث على التواصل الفنى مع ما أبدعه الأديب . وقد أجاد أبو هلال وأفاد بالإكثار من إيراد الشواهد التي يوضح بها الأصول التى يقررها فى هذا المجال ، وعرض لذلك فى مختلف أبواب الشعر من المديح والهجاء والرثاء وغيرها وكان يورد البيت أو النموذج الذى ينطوى على خطأ أو فساد ويذكر بعقبه القول الجيد فى هذا المعنى ، فكان بلاغيا ناقداً فى كثير من الأحيان وتلك ميزته الفريدة فى كتاب الصناعتين .

يقول أبو هلال [١] فى معرض التنبيه على خطأ المعانى وصوابها : « وللخطأ صور نبهت على أشياء منها فى هذا الفصل وبينت وجوهها ، وشرحت أبوابها . . ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه . . فمن ذلك قول امرىء القيس :

ألم تسأل الربع القديم بعسعسا كأنى أنادى إذ أكلم أخرسا[٢]

هذا من التشبيه فاسد ، لأجل أنه لا يقال : كلمت حجراً فلم يجب فكأنه كان حجراً . . والذى جاء به امرىء القيس مقلوب . . وتبعه أبو نواس فقال يصف داراً :

كأنها إذ خرست جارم بين ذوى تفنيده مطرق [٣]

والجيد منه قول كثير فى امرأة :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العظم زلت

فشبه المرأة عند السكوت والتغافل بالصخرة [٤] .

وهنا نرى أبا هلال يطلعنا على صورة من صور فساد المعنى تمثلت فى فساد التشبيه فى بيت امرىء القيس ، حيث شبه الربع القديم بالأخرس وتبعه أبو نواس فشبه الدار التى خلت من أهلها بالجارم الذى افتضح جرمه

---

١) الصناعتين /٨٥ وما بعدها .

٢) عسعس : موضع بالبادية وجبل .

٣) جارم : مقترف الذنب . « ذو تنفيده » : لأمّوه .

٤) الصناعتين ص ٨٦ .

وأحاط به اللائمون وهو بينهم مطرق لا يحير جوابا لائذ بالصمت لا يجد ما يقول . وبعد أن عرض أبو هلال هذين النموذجين لفساد المعنى يذكر الصورة المثلى لصحة هذا المعنى بعينه من قول كثير عزة الذى يشبه فيه المرأة المتأبية التى تتغافل عن الاستجابة لإلحاح المطارد لها بالصخرة الصماء .

ويفرغ أبو هلال عن هذا الأصل الذي ينبغى على المتأدب أن يراعيه فى نتاجه الفنى أموراً ينبغي مراعاتها فى كل غرض من أغراض القول فما يصلح المديح غير ما يصلح للهجاء وما يصلح للغزل غير ما يصلح للفخر إلى غير ذلك من الدقائق التي لا يحكم الوقوف عليها إلا أهل البصر بالفروق الدقيقة بين المعانى ، والتمييز بين مقتضيات كل منها .

فنراه يعرض نماذج يقصد فيها من أراد أن يمدح فهجا ، وأخرى لمن قصد أن يهجو فلم يبلغ ما يريد .

ومن أمثلة من أراد أن يمدح نفسه فهجاها قول الراعى :

ولا أتيت نجيدة بن عويمر أبغى الهدى فيزيدنى تضليلا

يقول أبو هلال تعليقا على البيت :

. . فأخبر أنه على شىء من الضلال لأن الزيادة لاتكون إلا على أصل . وأراد أن يمدح نفسه فهجاها .

٢ — إيثار صفات النفس :

وإذا كنا أشرنا إلى أن أبا هلال أفاد كثيرا من سابقيه فيما يتعلق بالأحكام والآراء النقدية فاننا لا نعدم بين ما أورده فى الصناعتين أن نجد تقعيداً لتلك المبادىء التى وردت عند سابقيه فى صورة نقدات جزئية فى

مواضع بعينها فأخذ أبو هلال الأصل الذى دارت عليه تلك النقدات ووضعه فى صورة قانون شامل أو قاعدة نقدية مقررة .

من ذلك أنه أخذ من التعليق المشهور لعبد الملك بن مروان على أبيات ابن قيس الرقيات فى قوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقصة ذلك مشهورة متداولة فى كتب النقاد الذين سبقوا أبا هلال ولكنا نراه يقول وهو يسوق هذه القصة [1] :

« ومن عيوب المديح عدول المادح عن الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة والعدل والشجاعة . إلى ما يليق بأوصاف الجسم من الحسن والبهاء والزينة كما قال ابن قيس الرقيات فى عبد الملك بن مروان : يأتلق التاج . . . الخ » .

ومن ثم نلحظ تأصيل أبى هلال للفكرة التى بنيت عليها ملاحظة عبد الملك على أبيات ابن قيس الرقيات ، ولا يكتفى أبو هلال بذلك بل يورد أمثلة أخرى شبيهة بأبيات ابن قيس يقول : « ومثل ذلك قول أيمن بن خريم فى بشر بن مروان :

يا ابن الأكارم من من قريش كلها وابن الخلايف وابن كل قلمس
من فرع آدم كابراً عن كابر حتى أتيت إلى أبيك العنبس

---

١) الصناعتين / ١١٤ وما بعدها .

مروان إن قناته خطية غرست أرومتها أعز المغرس
وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كل تاجها بالقسفس
فسماؤها ذهب وأسفل أرضها ورق تلألأ فى صميم الحندس

ثم يقول أبو هلال . فما فى هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذى يختص بالنفس وإنما ذكر سؤدد الآباء وفيه فخر للأبناء ولكن ليس العظامى كالعصامي ، وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصة للولد إذا تأخر عن رتبة الوالد ، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريعاً للولد الناقص ، وقيل لبعضهم: لم لا تكون كأبيك ؟ فقال : ليت أبى لم يكن ذا فضل فإن فضله صار نقصاً لى وقال الأول :

إنما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود

وقال غيره فى خلافه :

لئن فخرت بآباء ذوى شرف لقد صدقت ولكن بئس ماولدوا

ويستطرد أبو هلال فى تعليقه على أبيات ابن خريم فيقول : « . . . ثم ذكر أيمن بناء قبة حسنة وليس بناء القباب مما يدل على جود وكرم ، بل يجوز أن يبنى اللئيم البخيل الأبنية النفيسة ، ويتوسع فى النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ، ورد السائل . وليس اليسار مما يمدح به مدحا حقيقيا . ألا ترى كيف يقول أشجع السلمى :

يريد الملوك مدي جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفه أوسع

وهكذا نرى أبا هلال يفيض فى شرح هذا الأصل ويطوف بقارئه مستشهداً بأقوال الشعراء والحكماء ليشرح

من خلال ذلك كله صواب المبدأ الذى يقرره وضرورة مراعاة الأصل النقدى الذى يتحدث عنه وتلك ظاهرة من الظواهر المتميزة فى كتاب أبى هلال .

٣ — موافقة العرف والعادة :

ويعنى به أبو هلال أن يكون المعنى الذى يعبر عنه الأديب موافقا لما تعارف عليه الناس ، وجرت به ألسنتهم واعتمدته عقولهم واستساغته أفهامهم وبهذا المبدأ يربط أبو هلال الأديب ببيئته ومجتمعه ، فليس النتاج الأدبى ضربا من الاجتهاد الذى يترك لتقدير الأديب أو ما يتفق لخياله من صور بل لابد من أن تكون صوره وخيالاته متوائمة مع إدراك الناس من حوله ورؤيتهم للأشياء التى يصفها والصور التى يرسمها يقول أبو هلال: (١)

ومن عيوب المعنى مخالفة العرف وذكر ما ليس فى العادة كقول المرار :

وخال على خديك يبدو كأنه سنا البدر فى دعجاء باد دجونها

والمعروف أن الخيلان سود أو سمر ، والخدود الحسان إنما هى البيض ، فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى .

ويمضى أبو هلال فى ذكر أمثلة من الشعر المعيب لما فيه من مخالفة لما عرفه الناس وخبروه حتى يصل إلى قول أيمن بن خريم فى بشر بن مروان :

---

١) الصناعتين / ١١٢ .

٢) المرجع / ١١٦ .

فان أعطاك بشر ألف ألف رأى حقا عليه أن يزيدا
وأعقب مدحتى سرجا خلنجا وأبيض جوزجانيا عنودا
وأنا قد رأينا أم بشـــر كأم الأسـد مذكاراً ولودا

يقول أبو هلال تعقيبا على الأبيات :

جميع هذا الكلام جار على غير الصواب إلا فى ابتداء وصفه فى التناهى فى الجود، ثم انحط إلى مالايقع مع الاول موقعا وهو السرج وغيره ، وأتى فى البيت الثالث بما هو أقرب إلى الذم منه إلى المدح ... لأن الناس مجمعون على أن نتاج الحيوانات الكريمة أعسر وأولادها أقل ، كما قال الاول :

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقـر مقلات نزور

٤ — مراعاة ما تتطلبه فنون القول :

وهو أصل مهم من الأصول التي أدار أبوهلال بحثه حوله فلكل غرض من أغراض الكلام أصوله ومعاييره التى لا تتم الجودة إلا بمراعاتها ولابد للأديب أن يحسن الفروق الدقيقة بين ما تقتضيه مقامات الكلام وما يجمل به كل باب من أبوابه فما يصلح للمدح لا يصلح للوصف وما يتطلبه الغزل غير ما يتطلبه الرثاء أو الهجاء أو الفخر .

وقد نثر أبو هلال فى الفصل التنبيه على خطأ المعانى وصوابها جملة من الامثلة التى توضح تلك الاصول وتحدد لشداة الفن وسالكى دروبه ماينبغى أن يراعوه ليأتى ما يعالجونه من ضرب النتاج الأدبى بريئا من العيب خلوا من الهنات .

ولعل من المجدى فى هذا المقام أن أعرض على القارىء مانثره أبوهلال فى الفصل المشار إليها موزعاً ـ على نحو من النقاط التالية :

أ — الوصف :

يقول أبوهلال:[1] ينبغى أن نعرف أن أجود الوصف ما يستوعب أكثر معانى الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينك وذلك مثل قول الشماخ فى نبالة :

خلت غبر آثار الأراجيل ترتمى تقعقع فى الآباط منها وفاضها

فهذا البيت يصور لك هرولة الرجالة ووفاضها فى آباطها تتقعقع . . .

وقول يزيد بن عمرو الطائى :

ألا من رأى قومى كأن رجالهم نخيل أتاها عاضـــد فأمالها

فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصرعين :

ويتضح من الأمثلة التي أوردها أبو هلال أنه يعتد فى تقويمه لشعر الوصف باصابة الشاعر الواصف لأبرز ملامح الموصوف وعرضها فى صورة واضحة حتي كأن السامع للشعر يري المعانى المصورة ماثلة بين ناظريه .

ولا ريب أن ذلك الأصل الذي يضعه أبوهلال نصب أعيننا من شأنه أن يكفل للفن الشعرى البراعة فى التعبير عن المضمون والارتفاع عن التصوير الغائم والتشبيه المتعسف الذي لا يبين عن خصائص الموصوف ولا يكشف عن قسمات المشبه ومعالمه الموضحة لأبعاده ، وبمراعاة هذا

---

١) الصناعتين /١٤٥ .

هذا الأصل يكتسب الفن قيمة كبرى فى التصوير الدقيق لظواهر الحياة ووقائعها كما تتراءى للأدباء وتمثل فى خواطرهم .

ب — الغزل :

وقد تطلب فيه أبوهلال أن يبين الشاعر من خلاله عن مجموعة من الظواهر الملازمة للعشاق الصادق الغرام الذين عايشوا تلك الاحاسيس وصدروا عنها فيما يبدعون من فن ، ومن تلك الاصـــول التي دعا أبو هلال إلي ضرورة مثولها فى شعر الغزل ليكون أدعى إلي قبول المتعلقين له :

— إظهار إحتدام الصبابة وإفراط الوجد .
— عدم اظهار الجلادة أو الخشونة أو الإباء والعزة .
— أن يتضمن التشوق والحنين إلي مرابع الحب ومعاهد الأحبة .
— أن يكون دالا علي الحنين والتحسر علي البعاد والاسف علي فقدان الوصال .
— إظهار الرغبة فى الحب وعدم القدرة علي السلوان .
— إظهار التحير والتدله وإبراز استيلاء الهوى على نفسه وألا سبيل له إلى التخلص منه .

ويعرض أبو هلال بازاء كل أصل من تلك الاصول التي يتطلها الغزل النموذج الجيد فى هذا المعنى ففيما يتعلق بالاصل الاول وهو احتدام الصبابة وفرط الوجد يسوق قول أبى الشيص : (١)

---

١) الصناعتين /١٤٦ .

وقف الهوى بي حيث شئت فليس لي ... متأخـر عنـه ولا متقـدم
أجد الملهمة في هـواك لذيذة ... حبـا لذكرك فليلمـني اللوم
أشبهت أعـدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسـي صـاغرا ... ما من يهون عليك ممن أكرم

وفي التشوق لديار الأحبة يسوق قول الشاعر :

سرى البرق من نحو الحجاز فشاقني ... وكل حجـازي له البرق شـائق
بدا مثل نبض العرق والبعد دونه ... وأكناف ليلى دوننا الأسالـق
نهـاري بأشراف التلاع موكل ... وليـلي إذا ما جنني الليـل آرق
فوا كبدي مما ألاقي من الهوى ... إذا حن إلـف أو تألق بارق

وفي ميدان إظهار الرغبة في الحب وعدم التبرم به يسوق قول أبي صخر :

فيا حبهـا زدني جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وقول الآخر :

تشـكي المحبوبة الصبـابة ليتي ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لنفسي لذة الحب كلهـا ... ولم يلقها قبلي محب ولا بعدي

وفي سياق آخر عرض أبو هلال في الفصل نفسه [1] نموذجا من التعبير غير الصائب في هذا المعنى وهو من شعر جنادة بن نجية وهو قوله :

---

١) الصناعتين /٩٢ .

من حبها أتمنى أن يلاقيني من نحو بلدتها ناع فينعاها
لكي يكون فراق لا لقاء له وتضمر النفس يأسا ثم تسلاها

يقول أبو هلال تعليقا على البيتين :

« فإذا تمنى المحب لحبيبته الموت فما عسى أن يتمنى المغبض لبغيضته ؟ ! »

وشتان بين هذا وبين من يقول :

ألا ليتنا عشنا جميعا وكان بي من الداء مالا يعرف الناس ما بيا

ويستطرد أبوهلال فى الموازنة بين ما قاله الشعراء فى هذا المعنى ليخلص إلى مناط الصواب فى نتاجهم فيقول :

« ... ولو أن جنادة كان يتمنى وصلها ولقاءها لكان قضى وطرا من المنى ولم تلزمه الهجنة كما قال العباس بن الأحنف :

فان تبخلوا عني ببذل نوالكم وبالوصل منكم كي أصب وأحزنا
فاني بلذات المنى ونعيمها أعيش إلى أن يجمع الله بيننا

ومن المختار فى ذكر المنى قول الآخر :

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا
أماني من ليلى حسان كأنما سقتك بها ليلى على ظمأ بردا

ومما عيب على الشعراء فى معنى التضحية من المحب العاشق وإظهار ما يخالف ذلك من مقابلة الصدود والتمنع بمثله ما عيب به طرفة فى قوله :

وإذا تلسنني ألسنها إنني لست بموهون فقر

يقول أبو هلال معقبا على قول طرفة :

« والعاشق يلاطف من يحبه ولا يحاجه ، ويلاينه ولا يلاجه » . وقد قال بعض المحدثين :

بنى الحب على الجور فلو أنصف العاشق فيـــه لسمج
ليس يستحسن فى وصف الهوى عاشق يعـرف تأليف الحجج

وهكذا يلخص لنا أبو هلال أهم الأصول التى يجمل بالشعراء الغزليين مراعاتها فى شعر الغزل ، ويعرض علينا النماذج الجيدة فى كل منحى من مناحى التعبير كما يشير إلى الأخطاء التي وقعت لبعضهم وعابهم بسببها النقاد واستسقط متذوقو الشعر أقوالهم .

٥ ـ عرض المعنى بأبلغ عبارة وفى أجمل صورة :

وهو مقياس دقيق من مقاييس النقد الأدبى ، وهو فى الوقت ذاته مقياس عام يشتمل دقائق كثيرة ويضم أصولا فنية متعددة . وقد استطاع أبو هلال أن يلخص لنا فى الفصل الذي عقده فى بداية الباب الثانى من كتاب الصناعتين تحت عنوان « فصل فى تمييز الكلام » مجمل ما يراه بصدد الصياغة الأدبية الجميلة والأصول التي تكسبها براعة وقبولا . كما استطاع أبو هلال أن يكشف عن دقة ملكته الأدبية ورفاهة حسه النقدى بحيث أمكنه أن يفرق بين مستويات الأساليب صعودا وانحدارا كما استخدم معايير جديدة للتمييز بين الأساليب لم يسبقه إلى استخدامها أحد من النقاد الذين سبقوه مثل : «البارد» و «الفاتر» و «البغيض» و «الجلف» و «الجماس» وغيرها. كما دلل بصورة عملية على ذوقه المرهف فى الإحساس بصدق التجربة الشعرية

المؤثرة والإعجاب بالقطع الأدبية المتكاملة كما صنع عندما ساق شواهد مطولة من شعر البحترى (١) .

ومجمل رأى أبى هلال فيما يتعلق بالصياغة : أن الكلام يحسن بالسلاسة والسهولة ، ووضع الألفاظ فى مواضعها وأن هذا التوائم بين صورة اللفظ ومعناه هو الذى يكفل له القبول ويعطف الأسماع إليه ويشرح النفوس لتلقيه . وأبو هلال فى هذه الأفكار يتوصل لمبدأ مهم وجوهرى فى مجال النقد الفنى عموما وهو مبدأ التوافق أو الانسجام الذى يعد أساس البراعة فى التنون الجميلة ومن بينها الشعر . . . هذا التوافق هو الذى يحرك فى النفس الانسانية الإعجاب بالعمل المتقن ويجعلها تنفر من النماذج التى تفتقد تلك الخيوط الدقيقة التى تسرى فى النتاج الأدبى فتكسوه روعة وجمالا .

يقول أبو هلال بعد أن ساق مختارات من أقوال الشعراء ذات الجودة فى الصياغة والبراعة فى توافق معالم الجمال التعبيرى فيها والتئام صورتها مع مضمونها (٢) .

« . . . فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والنصاعه . . . » وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يرده ، وعلى السمع المصيب استرعبه ولم يمجه . والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسى البشع ، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه وتنفر عما يضاده ويخالفه ، والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح ،

---

١) الصناعتين ص ٧٧ وما بعدها .

٢) الصناعتين / ٧١ .

والأنف يرتاح للطيب وينغر[١] للمنتن ، والفم يلتذ بالحلو ويمج المر ، والسمع يتشوف للصواب الرائع ويتزوى عن الجهير الهـــائل ، واليد تنعم باللين ، وتتأذى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغي إلى الصواب ويهرب من المحال ، وينقبض عن الوخم ، ويتأخر عن الجافي الغليظ ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والرؤية الفاسدة . . »[٢] .

وعلى هذا النحو من التحليل يربط أبو هلال بين معايير الجمال في النص الأدبي وأنس النفس به وقبولها له ، وتعاطفها مع قائله ، ويدلل على أن ارتياح النفس للكلام الجميل وإحساسها بروعته ينتج من ميزاته الذاتية التي تحصل له من التئام أجزائه ، وتوافق شكله ومضمونه ، وتشابه مآخره لمباديه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه[٣] .

ولا ريب أن هذا التعليل الذي يعلل به أبو هلال للاعجـاب بالنتاج الجيد والانقباض عن الرديء يمثل كما أشرت أصلا عاما من أصـول الفنون الجميلة التي لابد فيها من تحقق التوافق والتجانس على نحو ما بين خطوطهـا وألوانها وأضواءها وظلالها ، وأنغامهـــا وإيحاءاتها حتى تبدو في نسق متناغم ، وتتهادى إلى حواس ووجدان المتذوقين لها في إطار بديع يستهوى الأفئدة ويستجيش الوجدان ، ويأخذ بمجامع الأحاسيس .

* * *

---

١) ينغر : يتأذى ويغتاظ .

٢) الصناعتين /٧١ .

٣) المرجع ص ٦٩ .

وعلى الرغم من أن كثيرا من الأحكام النقـدية التى قررها أبو هلال سبقه إلى التنبيه عليهـا النقاد المتقدمون من أمثال المرزبانى فى الموشـح ، والآمدى فى الموازنة ، والجرجانى فى الوساطة وغيرهم ـ إلا أن تقريرات أبى هلال اتسمت بصفة عامة بالتأصيـل والتنظير ، واستنباط المبدأ العام الذى يدور حوله النقد ، وذلك لأنه كان معنيا بتوضيح أصول الصناعتين : صناعة الشعر ، وصناعة النثر ، فاجتهد في استخلاص تلك الأصول والقواعد العامة من جملة ما ذكره المتقدمون عليه من النقاد مضيفا إليها ما انتهى إليه اجتهاده الخاص وتذوقه لألوان النتاج الأدبى ،

قضية السرقات الشعرية :

ومما يذكر لأبي هلال فى الصناعتين فضلا عن الأصول النقدية التى قررها وشرحها — بحثه لموضوع السرقات الشعرية ، وهو يدخل فى إطار الطابع العام لجهود أبى هلال فى ذلك الكتاب من حيث اقتفاؤه آثار سابقه ، والإفادة من تقريراتهم وآرائهم ، وإن كان أبى هلال قد أفاض فى موضوع السرقات وشرح القضيـة شرحا مستوفى وأورد خلال ذلك من الأفـكار والموازنات الشعرية ما يدل على تمثله لأبعاد ظاهرة السرقات ويؤكد سعة دراتيه بالتراث الشعرى ودقة أحكامه وسلامة ذوقه .

وتتلخص أصول قضيـة السرقات فى رأي أبى هلال فى أنه « لا غنى لأحد من أصنـاف القائلين عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظا من عندهم ويبرزوها فى معارض من تأليفهم . ويزيدوا فى حسن تأليفهـا وجودة

تركيبها ، وكمال حليتها ومعرضها ، فاذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليهـا »[1] .

ويستطرد أبو هلال فيحكي ما قاله الأولون عن السرقة ويميز بين من يأخذ المعنى بلفظه فيكون سارقاً ومن يأخذه بعض لفظه فيكون له سالخاً ومن يأخذ فيكسوه لفظا من عنده أجود من لفظه فيكون أولى به ممن تقدمه . . ثم يبين أبو هلال أن الحاذق يخفى دبيبه إلي المعنى يأخذه فى سترة فيحكم له بالسبق إليه أكثر من يمر به . . وأحد أسباب إخفاء السرق أن يأخذ معنى من نظم فيورده فى نثر ، أو من نثر فيورده فى نظم ، أو ينقل المعني المستعمل فى صفة خمر فيجعله فى مديح أو فى مديح فينقله إلي وصف ويمثل لذلك بقول أبى نواس :

أعطتك ريحانها العقـار وحان من ليلك انسقار

يقول أبو هلال :[2]

إن كان أخذه من قول لأعشى على ما حكوا فقد أخفاه غاية الإخفاء

وقول الأعشى :

وسبيئـة ممـا تعتق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها

سئل الأعشى من سلبتها جريالها . فقال . شربتها حمراء وبلتها بيضاء ، فبقى حسن لونها فى بدنى ، ومعنى أعطتك ريحانها العقار : أى شربتها فانتقل طيبها إليك .

ثم يورد أبو هلال مثالا آخر فيقول :

---

١) الصناعتين /٢١٧ .

٢) الصناعتين /٢١٩ .

ومن نقل المعنى من صفة إلى أخرى البحترى فانه قال فى المتوكل :

ولو أن مشتاقا تكلف غير ما
فى وسعه لسعى إليك المنبر

أخذه من قول العرجى فى صفة نساء :

لو كان حيا قبلهن ظعاينا حيا الحطيم وجوههن وزمزم

إلا أنه غير خاف .

ويفيض أبو هلال فى عقد الموازنات بين الشعراء الذين تواردوا على معنى أو معان متقاربة موضحا جهة التفوق والاجادة معللا لما يقول تعليلا مقنعا ومن أمثلة ذلك قولة : (١)

وقول أبي تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحب إلا للحبيب الأول

أبين وأدخل فى الامثال من قول كثير :

إذا ما أرادت حلة أن تزيلنا أبينا وقلنا الحاجبية أول »(٢)

وقال البحتري :

---

١) الصناعتين / ٢٢٤ .

٢) الصناعتين / ٢٢٥ .

فمن لؤلؤ تجلوه عند إبتسامها

ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

أحسن لفظا وسبكا من قول أبى حية

إذا هن ساقطن الحديث كأنه

سقاط حصى المرجان من سلك ناظم

وبيت البحترى أيضا أتم معنى لأنه تضمن ما لم يتضمنه بيت أبى حية من تشبيه الثغر بالدر ، (١) .

وفى الفصل الذى تحدث فيه أبو هلال عن قبح الاخذ أو السرق المذموم يوضح ضروب الاخذ المعاب ومنها : أن يعمد الآخذ إلى المعنى فيتناوله بلفظه كله أو أكثره أو يخرجه فى معرض مستهجن (٢) ، ويفيض بعد ذلك فى سرد الامثلة على هاتين الصورتين المعيبتين فما يذكره من شواهد الصورة الاولى (أخذ المعنى بلفظه كله أو أكثره) ـ قول البعيث :

أترجو كليب أن يجىء حديثها

بخير وقد أعيا كليبا قديمها

وقال الفرزدق :

أترجو ربيع أن تجىء صغارها

بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

---

١) المرجع السابق / ٢٢٨ .

٢) المرجع السابق / ٢٤٩ .

يقول أبو هلال معقبا على مثل هذا الاخذ :

« ... والاخذ إذا كان كذلك كان معيبا وإن ادعي أن الآخر لم يسمع قول الاول بل وقع لهذا كما وقع لذاك فان صحة ذلك لا يعلمها إلا الله عز وجل والعيب لازم للآخر .. » (١)

ومن شواهد الامر الآخر (أخذ المعنى الواضح وإفساده أو إخراجه فى معرض قبيح) ـ قول الحسن بن وهب وقد سمع قول أعرابى اجتمع مع عشيق له فى بعض الليالى : اجتمعت معها فى ظلمة الليل وكان البدر يرينيها فلما غاب أرتنيه ـ فقال :

أرانى البدر سنتها عشاء ... فلما ازمع البدر الأفولا
أرتنبيه بسننها فكانت ... من البدر المنور لى بديلا

يقول أبو هلال معقبا (٢) : ... فأطال الكلام وجعل المعنى فى بيتين وكرر « السنة » و « البدر » . وقال البحترى فأربى على الاعرابى وزاد عليه :

أضرت بضوء البدر والبدر طالع
وقامت مقام البدر لما تغيبا

وقد يجتمع العيبان فى سرق واحد بأن يأخذ الشاعر أو الاديب عامة

---

١) المرجع /٢٥٠ .
٢) المرجع / ٢٥٢ .

المعنى بلفظه كله أو أكثره ويخرجه فى معرض بغيض . . مثل الذى يذكره أبو هلال بقوله : . . « وأخذ ابن طباطبا قول علي رضى الله عنه (قيمة كل امرىء ما يحسنه) فقال :

فيا لائمي دعني أغال بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه

فأخذه بلفظه وأخرجه بغيضا متكلفا . . »[1] .

وهكذا يؤصل أبو هلال لقضية السرقات ويوضح متى يكون الأخذ محمودا ومتى يكون مذموماً ويشرح الأسس التى تقوم عليها القضية والجزئيات التي تتفرع عنها ويفيض فى إيراد الأمثلة ويعقد كثيرا من الموازنات التي تدل على ذوق متميز وعقلية مثقفة ودراية واسعة بالشعر العربى ودقائق معانيه والإضافات التي أداها الشعراء فى المراحل الزمنية المتعاقبة حتى القرن الرابع الهجرى الذى عاش فيه أبو هلال .

موقفه من المتنبي :

وأخيراً أتناول جزئية لها علاقة وثيقة بموقف الناقد الأدبى من الأديب الذى يتاح له النظر فى نتاجه ويعرض للحكم على بعض هذا النتاج أو يوازن بينه وبين غيره . ومحور البحث فى هذه الجزئية يدور حول نقطة محددة فحواها : هل يقبل من الناقد أن يتناول أو يعرض للنماذج الرديئة وحدها ويحجب ما عداها ؛ حتى وإن جاءت نقداته لما ينتقده صحيحة مسلمة له ؟

هذا هو التساؤل . وهذا ما صنعه أبو هلال مع المتنبي لتحزب عليه ، أو عدم تقدير لشعره .

---

١) المرجع /٢٥٢ .

ولقد آثار الدكتور زكى مبارك هذه القضية فى كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع » وهو يتحدث عن أبى هلال ، وعلل لهذا الموقف بأن أبا هلال كان مصغيا للصاحب بن عباد وكان الصاحب يكره المتنبي كرها شديداً لترفعه عن مدحه فكان لذلك يدفع النقاد إلى النيل منه والوقوع فيه ، والغض من شعره(١). وهذا فى حين نجد أبا هلال يطرى على الصاحب ويستشهد بكثير من نتاجه النثرى مدللا به على جمال العبارة وبراعة السجع والأزدواج .

أما تحامله على المتنبي فبدأ واضحا فى مواطن كثيرة من كتابه الصناعتين فهو كما يقول زكي مبارك : لا يذكره بأسمه ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح ... وبعد أن يذكر الدكتور زكي مبارك بعضا من الشواهد يقول عن أبى هلال : فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامي عن معانيه الجيدة وخياله الوثاب ، فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي إبتغاء مرضاة الوزير بن عباد .وما أحط الآدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان » (٢) .

وتلقف القضية بعد ذلك الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عن العرب (٣) فأنكر رأى زكي مبارك وذكر أنه لم يقم دليل على طبيعة الصلة بين أبى هلال والصاحب وأن أبا هلال ذكر للمتنبي شعر مستحسنا

---

١) النثر الفنى /١١٨ .
٢) النثر الفنى ١٢١ .
١) ص ٢٢٤ وما بعدها .

فى مواضع قليلة من كتابه ، وأن الابتداءات التى يعيبها أبو هلال على المتنبي تستحق كلها أن تعاب وذكر منها ستة عشر مطلعا .

والحق أن الدكتور مندور لم يحالفه الصواب في تعقيبه على رأى زكي مبارك ووقع فيما يشبه التناقض لأنه قال فى معرض تعليقه على رأى زكي مبارك .

« الأمر فيما يبدو (بسيط) بالنسبة للمتنبي ، فنحن لا نرى تحاملا من أبى هلال على هذا الشاعر إلى فى إغفاله لذكر محاسنه كما نراه يفعل عند الكلام على إبتداءات القصائد ، إذ لا يورد له مطلعا واحداً يستحسنه الناس بينما يورد ١٦ مطلعا رديئا . وسوف نرى عبد العزيز الجرجانى يورد للمتنبي عشرات المطالع الجيدة جودة حقيقة يقيمها إلى جوار ما انتقده من إبتداءاته ، وهذا هو النقد النزيه الذى يبدو نقد أبي هلال إلى جواره غير عادل » (١) .

إلى هنا والكلام للدكتور مندور وإنى أتساءل أليس آخر هذا الكلام ينقض أوله ؟ وكيف ينفى الدكتور مندور عن أبى هلال التحامل على المتنبي ثم يؤكد أن نقده له غير عادل وغير نزيه ؟ !

إن تحامل أبى هلال على المتنبي واضح لا يحتاج إلى تعداد وترداد ، فلم يكن المتنبى شاعراً مغموراً أو من أنصاف الشعراء ولكنه كما قيل عنه : « ملأ الدنيا وشغل الناس » فاهمال أبى هلال لشعره ، وتعلقه برديئه وإغفال روائعه أمارات بينات على اضطغانه عليه وأيا كان سبب ذلك فان

---

١) النقد المنهجى / ٢٢٦ .

موقف أبى هلال من المتنبي مما يؤخذ على أبى على أبى هلال وبخاصة فى فى معرض تقويم آرائه النقدية .

* * *

وبعد فقد طوفنا فى هذه الصفحات مع آراء أبى هلال العسكرى النقدية فى كتاب الصناعتين ، واتضح لنا من خلال رصد تلك الآراء وتفرسها أمور من أبرزها :-

١ — قام أبو هلال بدور مهم فى تأصيل قواعد النقد الأدبى عند العرب عن طريق الشرح والتنظير فكان يستقى من النقدات الجزئيـة ، والتعليقات المتناثرة أصولا عامة وقواعد كلية .

٢ — لم يكن دور أبى هلال مقصوراً على النقـد فقط بل كان كثيرا ما يضطلع بدور راوى النقد ومن ثم استباح لنفسه نقل آراء غيره معلقا عليها شارحا لها دون أن يشير إلى أنها ليست من استنتاجه الذاتى .

٣ - برزت جهود أبى هلال النقدية فى الصناعتين بصورة واضحة فى مجموعة من القضايا منها : السرقات الشعرية واللفظ والمعنى وصدق التجربة الشعرية ، والنظرة الكلية للنص الأدبى ، والتميز بين المفاهيم الدقيقة للحقائق الأدبيـة ، وتحديد مستويات للجودة والرداءة ، وتعليله للاحساس بالجودة بأن النفس تأنس بالكلام الجميل وتنفر من القبيح .

ولعلى بعد تقرير هذه الحقائق أجد لزاما على أن أنبه إلى أهمية التنقيب عن نثار تراثنا النقدى وبخاصة فى المصادر التى تختلط فيها قضايا النقد بغيرها من

مسائل العلوم ليتسنى للباحثين والدارسين المتخصصين أن يفيدوا من هذه البحوث ويزدادوا معرفة بأبعاد تراثنا النقدي الأصيل كي يؤسسوا على نهجه فكرا نقديا سامقا يؤصل لأدبنا وينبع من تراثنا ويتواءم مع طبيعة أذواقنا وحقائق أدبنا وقيمه الفنية ، والله الموفق .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية ، لبدوى أحمد طبانة ، ط القاهرة سنة ١٩٥٢م ، سنة ١٣٧١ هـ .

٢ ـ كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكرى تحقيق مفيد قميحة ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨١ م .

٣ ـ مشكلة السرقات فى النقد العربى ، د. محمد مصطفى هدارة ط المكتب الإسلامي ١٩٧٥ م .

٤ ـ الموشح ـ لمحمد بن عمران المرزبانى تحقيق ، محب الدين الخطيب الطبعة الثالثة القاهرة ١٣٨٥ هـ .

٥ ـ النثر الفنى فى القرن الرابع ، لزكي مبارك ط دار الجيل سنة ١٩٧٥ م

٦ ـ نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط أولي ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م مطبعة الكليات الأزهرية .

٧ ـ النقد المنهجى عند العرب ، د. محمد مندور ط دار نهضة مصر .

٨ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجانى ط عيسى البابى .